الدعوة إلى التوحيد

بقلم

د. صالح بن عبد العزيز بن عثمان سندي

الأستاذ المساعد بقسم العقيدة بكلية الدعوة بالجامعة الإسلامية

دار اللؤلؤة

الدعوة إلى التوحيد

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ
إلا لمن أراد طبعه وتوزيعه مجاناً

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

دَارُ اللُّؤلُؤَةِ لِلطِّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ
لبنان - بيروت
هاتف : ٠٠٩٦١١٨٢٤١٩٤
جوّال : ٠٠٩٦١٧٠٦٥٤٤٦٠
البريد الإلكتروني: Daralloloaa@hotmail.com

الدعوة إلى التوحيد

بقلم

د. صالح بن عبد العزيز بن عثمان سندي

الأستاذ المساعد بقسم العقيدة بكلية الدعوة بالجامعة الإسلامية

دار اللؤلؤة

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على جميل أفضاله، وجزيل برِّه ونواله، والصلاة والسلام على البشير النذير، والسراج المنير، وصحبه وآله.

أما بعد:

فإن الدعوة إلى الله رتبة منيفة لا يضطلع بها - على وجهها - إلا الصادقون. وهي من أجلِّ الطاعات المقربة إلى رب الأرض والسماوات.

وقد جعل النبي عليه الصلاة والسلام الدين هو النصيحة؛ فقال: «**الدين النصيحة**»[1]، وفي هذا بيان بليغ لمنزلتها الرفيعة في الشريعة.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (أعظم ما عُبد الله به نصيحة خلقه، وبذلك بعث الله الأنبياء والمرسلين، ولا نصيحة أعظم من النصيحة فيما بين العبد وربه)[١].

وشاهد هذا في كتاب الله قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣]. وهذا استفهام إنكاري؛ أي: لا أحد أحسن قولاً ممن هذه حاله؛ اهتدى في نفسه، ثم دعا عباد الله إليه.

ورأس أولئك وغُرتهم أنبياء الله ورسله، والدعاة الصادقون الذين عملوا على تكميل أنفسهم ثم تكميل غيرهم قد حصلت لهم الوراثة التامة لهم[٢]؛ لذا فهم خواص الخلق، وأعلاهم منزلة، وأرفعهم درجة.

وإذا كان هذا المقام العلي يشمل تعليم الجاهل

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٦١٥).

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمٰن (٧٤٩).

ووعظ الغافل ومجادلة المبطل والأمر بأمر الدين عامة والنهي عن ضده؛ فلا شك أن ما تعلق من ذلك بأصل الدين أعظم أهمية وأعلى شرفاً؛ بل هذا المقصود الأسمى للدعوة إلى الله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (المقصود بالدعوة وصول العباد إلى ما خُلقوا له من عبادة ربهم وحده لا شريك له)[١].

إن الدعوة - وفق المنهج الشرعي - التي تهتم بالآداب والرقائق وتوثيق العلاقات الاجتماعية لا يُقلل من شأنها وأهميتها، لكنها إذا ما قورنت بأعظم القضايا (التوحيد) تقاصرت أمامه.

إن من المعلوم بالضرورة أن التوحيد أحسن الحسنات وأفضلها وأرفعها، وأنه أصل الدين وجماعه، وظاهره وباطنه، وأوله وآخره، فهو أصل دعوة الرسل وأساسها ورأسها وأكمل ما فيها، بل ليس في دين المرسلين ولا كتب رب العالمين أمر

(١) مجموع الفتاوى (٦/٢).

أعظم من التوحيد[١]؛ فقليله ينجي من الخلود في النار، وكثيره ينجي من دخولها ـ برحمته سبحانه، وعياذاً به منها ـ.

وتحقيق هذا التوحيد وبلوغ مراتبه العليا يعني انجذاب الروح إلى الله تعالى محبة وخوفاً وإنابة وتوكلاً ودعاء وإخلاصاً وإجلالاً وهيبةً وتعظيماً؛ فلا يرجو العبد سواه، ولا يخشى إلا إياه، ولا ينيب إلا إليه، ولا يتوكل إلا عليه، إذ ليس في قلبه شيء لغيره، ولا إرادة لما حرّم، ولا كراهة لما أمر[٢]؛ فيكون متحققاً بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٤٢]. قال ابن القيم رحمه الله أثناء كلامه عن هذه الآية: (فليس وراءه سبحانه غاية تُطلب، وليس دونه غاية إليها المنتهى. وتحت هذا

(١) انظر: تلخيص الاستغاثة (١/٢٩٠ ـ ٢٩٦).

(٢) انظر: منهاج السنَّة النبوية (٥/٣٤٧ ـ ٣٤٩)، ومدارج السالكين (١/٣٥٥)، وجامع العلوم والحكم (٢/٣٤٨، ٤١٧)، وتيسير العزيز الحميد (٩٩).

سرٌّ عظيم من أسرار التوحيد؛ وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يُحب ويراد فمرادٌ لغيره، وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحدٌ إليه المنتهى... ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعيمه ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد)[١].

وهذا التوحيد هو مفتتح دعوة الرسل وخاتمتها وأكبر قضية فيها ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]؛ فأعظم ما عُني به الأنبياء أجمعون: التوحيد، مع أن مجتمعاتهم كانت تعيش مشكلات اجتماعية واقتصادية وأخلاقية وسياسية كثيرة، ومع ذلك فالقضية الأعظم في دعوتهم: التوحيد؛ فجميعهم ينادون في أقوامهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وهذا نبينا محمد عليه الصلاة والسلام يبدأ

---

(١) الفوائد (٢٧٨ ـ ٢٧٩).

دعوته بقوله: «**قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا**»[١]، ويختمها بقوله: «**لعنة الله على اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» يُحذّر ما صنعوا[٢]، وفيما بين ذلك كانت دعوة التوحيد تأخذ أكبر قدر من دعوته الشريفة.

ولما سأله عمرو بن عبسة ﷺ: الله أرسلك؟ قال: «**نعم**»، قال: بأي شيء أرسلك؟ قال: «بأن يوحد الله ولا يشرك به شيء، وكسر الأوثان، وصلة الرحم»[٣].

وحينما بعث معاذاً ﷺ إلى اليمن أمره أن تكون بداية الدعوة إلى التوحيد؛ فقال له: «**إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى**»[٤].

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٠٢٣)، وجوَّد إسناده الألباني في صحيح السيرة (١٤٢).
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٥٣)، ومسلم (٥٣١).
(٣) أخرجه مسلم (٨٣٢)، وأحمد (١٧٠١٩) واللفظ له.
(٤) أخرجه البخاري (٧٣٧٢)، ومسلم (١٩).

هذا، وإذا كانت الدعوة إلى التوحيد أمراً ذا أهمية بالغة فيما مضى؛ فإن الأهمية اليوم أشد، والمسؤولية أعظم، **وترجع أسباب ذلك إلى ما يأتي:**

● **أولاً:** الخلل العقدي المنتشر في المجتمعات الإسلامية المعاصرة.

وأنبِّه ابتداء إلى أن الدعوة إلى التوحيد لا ينبغي أن تكون مقصورة على المجتمعات التي يكثر فيها الشرك، وتفشو فيها قوادح التوحيد؛ بل المجتمعات التي سلمت من هذه الآفات تتأكد فيها الدعوة إلى التوحيد؛ فإن الدعوة إليه والأمر به والنهي عن ضدِّه من أعظم أسباب الثبات عليه، وهذا مسلكه نتلمسه في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦].

وقد بايع النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه ـ وهم أئمة الموحدين من المسلمين ـ على الثبات على التوحيد؛ فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: (كنا مع

رسول الله ﷺ في مجلس فقال: «**تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا...**» الحديث[١].

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: (كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**» وكنا حديثَ عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**»، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**»، قال: فبسطنا أيدينا، وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟ قال: «**على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس...**») الحديث[٢]. وما هذا إلا لأن التوحيد أعظم الأمور وأهمها وأشرفها.

أقول: على افتراض سلامة المجتمع المسلم من نواقض التوحيد وقوادحه، فإن الدعوة إلى التوحيد

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٩٤)، ومسلم (١٧٠٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٤٣).

والتواصي به قضية متحتمة؛ فكيف وقد ضرب الشرك في كثير من نواحيه بجذور راسخة، وعشعشت الجهالات والخرافات في عقول جم غفير من أبنائه[١].

فأي عين يجمل بها أن تستبقي في محاجرها الدموع فلا تريقها أمام هاتيك المناظر المحزنة؟ وأي قلب لا يطير جزعاً وألماً على الحال التي تردى إليها كثير ممن ينتسب إلى الإسلام؟

فكم الذين يتوجهون بالدعاء لغير الله؟

كم تلك الجموع المحتشدة حول القبور؛ يهتفون باسم أموات قد تفتتت عظامهم وتقطعت أوصالهم، معرضين عن دعاء العزيز الغفار، الحي الذي لا يموت؟

كم أولئك الذين جعلوا الأضرحة مزارات

---

(١) ولست أعني مجتمعاً معيناً؛ إنما الكلام على العالم الإسلامي في الجملة.

يطوفون بها، ويتبركون ويقبلون، وينذرون لأصحابها ويذبحون، مع انحناء الرؤوس وضراعة النفوس؟

كم أولئك الذين يدّعون علم الغيب أو الذين يسألونهم، سواء أكان بقراءة كف أو فنجان؛ رغبة في معرفة مفقود أو سبب مرض أو حالٍ مستقبلة؟ وكم عدد المجلات الهابطة التي تعج بذكر الأبراج وما يجري فيها من سعود أو نحوس؟

كم أولئك الذين يؤمّون السحرة لقصد ما؛ من صرف أو عطف أو أذية أو ربط؟

وكم الذين يقصدونهم بغرض النشرة الشركية - أي: حل السحر بمثله - مع أن النبي عليه الصلاة والسلام سئل عنها فقال: «**من عمل الشيطان**»[1].

كم أولئك الذين يسقطون في مهيع خطير

---

(١) أخرجه أحمد (١٤١٣٥)، وأبو داود (٣٨٦٨). وحسنه ابن حجر في فتح الباري (٢٣٣/١٠)، وقال ابن مفلح: (إسنادٌ جيد). الآداب الشرعية (٦٣/٣)

باستهزائهم بالدين وأحكامه؛ بالقول أو الكتابة أو التمثيل أو الرسوم؛ فيسخرون بالحجاب، أو يتندرون باللحى وتقصير الثياب؟

وكم الذين يغمزون في الشريعة بأسلوب رمزي تارة، وصريح تارة أخرى؛ فيصفون الإسلام بظلم المرأة حين جعل القوامة للرجل والطلاق بيده وأحلَّ له التعدد، أو يصفونه بالوحشية لشرعه الحدود والقصاص، أو نبزه بالقصور عن استيعاب أحكام السياسة والاقتصاد؟

وكم مرضى القلوب الذين تظهر من فلتات أقلامهم أو لحن قولهم إرادة للتحاكم إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به؟

كم المعلِّقون للتمائم على أعناقهم وسواعدهم، أو دوابهم وسياراتهم، أو بيوتهم ودكاكينهم؟

وكم المتطيِّرون عند رؤية ذي عاهة أو حادث سير أو طائر أسود؟

وكم دبّ في عالم المسلمين اليوم من داء ضعف البراءة من الكفر وأهله؛ فأثمر تشبهاً بالكفار في العادات والهيئات، ومحبتهم واتخاذهم أولياء؟

كم الحالفون بغير الله، أو المتوسلون بالجاه والحق؟

وكم الواقعون في أصناف كثيرة من البدع العملية والاعتقادية؟

بل الانكباب على المعاصي والإصرار على السيئات والمجاهرة بالموبقات؛ أليست ناشئة عن ضعف التوحيد؟ بلى والله، والبلية بهذا الأمر عظيمة، والغفلة عن تأثيره على التوحيد كبيرة؛ فإن الإصرار على الذنوب لا ينشأ إلا عن محبة ما يبغض الله، أو كراهة ما يحب، أو تعلُّق القلب بغير الله؛ وكل هذا نقص في التوحيد.

قال ابن رجب رحمه الله: (فتبين بهذا أنه لا يصح تحقيق معنى قوله: «لا إله إلا الله» إلا لمن لم

يكن في قلبه إصرار على محبة ما يكرهه الله، ولا على إرادة ما لا يريده الله، ومتى كان في القلب شيء من ذلك كان نقصاً في التوحيد، وهو من نوع الشرك الخفي)[١].

● **ثانياً**: يدرك الجميع أن العالم اليوم أضحى يعيش ثورة هائلة في وسائل الاتصال والإعلام، وهذه الوسائل حملت عبر أثيرها غزواً عقدياً بات يطلُّ علينا من كل باب، وفق خطط مدروسة تسعى لطمس العقيدة الإسلامية في النفوس، وأمسى التلفاز والقنوات الفضائية والشبكة العالمية وأخواتها من وسائل الإعلام هي المؤثر الأكبر في نفوس النشء والشباب، بل والمجتمع بعامة.

فكم القنوات التي أُتخم بها الفضاء وأضحت تمطر المسلمين بوابل من الشر؟ فهذه قنوات للتنصير وتحسين دين النصارى في نفوس الصغار والكبار،

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/٥٢٤).

وتلك قنوات تشكك في أحكام الشرع وتزيِّن الانسلاخ منه، وأخرى تخصصت في السحر والشعوذة، أو نشر البدع والخرافة، أو الطعن في أهل السنَّة والحط منهم.

ناهيك عن بعض قنوات قدمت نفسها للناس على أنها قنوات إسلامية، والواقع أنها حربٌ على عقيدة السلف الصالح؛ لما تطرحه من فكر عقلاني يقدم العقل على النقل، ويزين البدع، ويرفع من قدر أربابها، ويدعو للتشكيك في أحكام الدين والتحلل من ربقة الاتِّباع؛ باسم الإسلام العصري الذي يُطوَّع فيه الدين حسب الرغبات والأهواء، إلى غير ذلك من الشرور التي يستدعي كشفها إلى مساحة أوسع.

أما شبكة المعلومات (الإنترنت) فتلك البحر الذي لا ساحل له؛ فحدث ولا حرج عما تزخر به الملايين من صفحاتها ومواقعها ومنتدياتها من السم الزعاف الذي يصيب عقائد المسلمين في مقتل؛ إلحاداً وشركاً وبدعةً وانحلالاً، وكل من له عناية

بالشبكة يدرك يقيناً حجم الخطر الذي تمثله على التوحيد.

● **ثالثاً**: نشاط ملل الكفر في نشر معتقداتهم وأباطيلهم بصورة لم يعهد لها مثيل في السابق، ولقد تجاوزوا في محاربتهم للإسلام ولعقيدة الإسلام الأساليب التقليدية السابقة، واستحدثوا وسائل جديدة تهدف إلى أمرين:

الأول: إخراج المسلمين من دينهم أو تشكيكهم فيه.

والثاني: تغيير الإسلام نفسه في نفوس المسلمين؛ من خلال بث مفاهيم مغلوطة، تتمخض عنها عقيدة باهتة، لا لون لها ولا طعم ولا رائحة.

مستغلِّين في هذا هيمنتهم السياسية، وإحكام قبضتهم على وسائل الإعلام العالمية، وتأثيرهم على التعليم ومناهجه، لا سيما في المجتمعات الإسلامية الفقيرة.

يظاهرهم في ذلك آخرون من بني جلدتنا، ذوو أقلام وألسنة، يُظهرون فكراً وتنويراً، ويبطنون علمنةً وإلحاداً، وقد يظهرون ذلك.

● **رابعاً**: نشاط أهل البدع في نشر عقائدهم ومحاربة التوحيد وأهله.

فمن سنة الله في خلقه أن الحرب بين الحق والباطل سجال، وإن كانت العاقبة للتقوى.

ومن ذلك أن المعركة بين أهل التوحيد والسنَّة وأهل البدعة والخرافة قديمة حديثة، قال ابن القيم رحمه الله: (الذي بين أهل الحديث والجهمية من الحرب أعظم مما بين عسكر الكفر وعسكر الإسلام)[1]. وما قيل عن الجهمية يقال عن سائر فرق الضلال.

وأهل البدع في هذا العصر ينشطون على قدم

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (٢٤٤).

وساق لدك حصون السنَّة، وبث الشُّبه، واستئصال شأفة التوحيد، والطعن في علماء أهل السنة، ونقد مصنفاتهم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره.

ولم يعد سراً ذاك الدعم الكبير ـ مادياً ومعنوياً ـ من أعداء الله الكفرة لبعض الفرق البدعية في حربها للتوحيد وأهل التوحيد؛ نظراً لتقاطع المصالح واتحاد العدو.

حتى صار لهم ـ على اختلاف طرائقهم ـ قنواتهم الفضائية، ومواقعهم الشبكية، ومراكزهم البحثية، ومعاهدهم العلمية، ومصنفاتهم ومجلاتهم الورقية والإلكترونية.

ولقد امتدَّ نشاطهم فشمل بلداناً لم يكن لهم فيها موطئ قدم، وصار وجودهم فيها خطراً محدقاً ينذر بشر مستطير وعواقب وخيمة.

● **خامساً**: لا يُجحد أن الجهود المبذولة في الساحة الدعوية اليوم كثيرة ضخمة، غير أن ثمرتها

ليس كما يؤمل منها، وذاك يرجع - فيما يرجع - إلى الخلل في المنهج الدعوي لدى كثير من القائمين بتلك الجهود، من أفراد أو جماعات.

وما أحسن ما قال ابن القيم رحمه الله: **(فلو سلك الدعاة المسلك الذي دعا الله ورسوله - ﷺ - به الناس إليه لصلح العالم صلاحاً لا فساد معه)**[1].

وأبرز أوجه ذلك الخلل لدى أولئك: إهمال الدعوة إلى التوحيد؛ فالواقع يشهد بتقصير أولئك الكبير في بيان حقيقة التوحيد وتوضيح مسائله، وضعف عنايتهم به، هذا إن سلموا من التهوين منه، أو محاربة الداعين إليه، أو سلموا من الخطأ في فهمه أو الوقوع فيما يخالفه، وهذا شيء مؤسف، والشواهد عليه كثيرة.

وصنف من أولئك الدعاة يزعمون أن إعطاء التوحيد حقه من الدعوة عائق أمام اجتماع الأمة

---

(١) الفوائد (٢٢٢).

واتحادها؛ فلذلك يتحاشون الحديث عنه، أو يُجملون إن تحدثوا عنه ولا يفصّلون، أو يقصرون الحديث على جانب منه؛ حتى لا تنفضَّ الجموع عنهم إن طرقوا أبواباً أخرى منه.

فما أجهل هؤلاء بالحقيقة الناصعة: أن التوحيد أعظم رابطة وأقوى وشيجة تجمع أهل الإيمان حقاً؛ فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

وما أقبح الداعية الذي جلُّ همه إرضاء الناس وتكثير سوادهم حوله، وتنامي بريق شهرته، والله المستعان.

هذا، ولقد أفرز الحرص على التجميع وارتفاع الرصيد الجماهيري ـ كما يقولون ـ مع قلة التحصيل الشرعي، وضعف الارتباط بمنهج السلف ـ خللاً منهجياً آخر؛ ذلكم أنك تجد بعض أولئك الدعاة يؤصّل المسائل الشرعية وهو واقع تحت ضغط الواقع، أو متأثر بالطرح الإعلامي الشائع، لذا فهم

يمارسون أحياناً عملية تغييب لمفاهيم شرعية أصيلة، ويُبرزون مبادئ إسلامية ناقصة.

بل إن أولئك ـ على حين غفلة منهم ـ صاروا يردِّدون ما يريد أعداؤهم أن يقولوه؛ من كلمات مشتبهة، وعبارات مشبوهة؛ تهوّن من العقيدة، أو من حجم الخلاف مع مخالفيها، أو تكسر حاجز البراءة مع الكفار، إلى غير ذلك من المفاسد التي لا تخفى عن الحصيف.

وإذا تبين مما سبق أن الدعوة إلى التوحيد قضية حتمية مُلحّة في هذا العصر لا خيار فيها، وأن الأسباب التي سبق عرضها ينبغي أن تشحذ الهمم للتبصير به ـ فهذه وصايا لدعاة التوحيد، أوجهها لنفسي ولهم:

الدعوة إلى التوحيد تستلزم أن يتحقق الداعية أولاً بالتوحيد؛ ففاقد الشيء لا يعطيه.

فأولى الناس بالعناية بالتوحيد: الدعاة إليه في أنفسهم؛ تعلُّماً وعملاً وتحقيقاً.

وتأمل في هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا

تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: ٨٧، ٨٨]. فابدأ بنفسك أيها الموفق.

وتأمل أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِى أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨]. فألصق الناس بالتوحيد وأبعدهم عن ضده هم الدعاة إلى التوحيد.

ومن لطائف هذه الآية: أنها جمعت شرطي قبول العمل: فالإخلاص في شطرها الأول، والمتابعة في شطرها الثاني: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾.

فعلى الداعية إلى الله أن يراقب النفس ويمحص النوايا، وأن يحذر من الهوى وحب الظهور وطلب الجاه والرئاسة، وعليه ألا يكترث بالكثرة؛ فلا يعمل لها، ولا يغتر بها، فهو داعية إلى الله لا إلى نفسه.

الداعية الناجح هو الواقعي في دعوته، الذي يسخر ما يستطيع لخدمة الدعوة.

والدعاة إلى التوحيد مطالبون باستخدام وسائل الدعوة ذات التأثير البليغ في النفوس، الواصلة إلى أكبر شريحة من المدعوين، الخالية من المحاذير الشرعية؛ فالغاية لا تبرر الوسيلة.

إن تدريس متون التوحيد، وإلقاء الخطب والمحاضرات والكلمات، ونشر الرسائل والمطويات، والمشاركة الصحفية والرد على المخالفين، والمشاركة في مواقع الشبكة، وتنقية تراجم معاني القرآن والحديث من الأخطاء العقدية.. فهذه الوسائل

- وغيرها كثير - يستطيع المرء أن يشارك في الدعوة من خلالها، وأن يضرب بسهم في هذا الخير بها، وكلٌّ بحسب طاقته وإمكاناته، والله عزَّ وجلَّ «قسم الأعمال كما قسم الأرزاق»[١].

وإن من الأمور التي ينبغي أن يوليها دعاة التوحيد حظاً وافراً من الاهتمام: إنشاء القنوات الفضائية المعتنية بشأن التوحيد؛ فنحن في زمن أضحت القنوات الفضائية هي الوسيلة الأهم والأكثر جذباً وتأثيراً من بين وسائل الإعلام، وكثير منها - كما سبق - معول هدم له، فما أحرانا أن نعتني بهذه الوسيلة التي يمكن من خلالها توجيه الملايين ونصحهم في ساعة واحدة.

فعلى دعاة التوحيد السعي في إنشاء القنوات

---

(١) هذه الجملة من محاسن كلام الإمام مالك رحمه الله، انظرها في سير أعلام النبلاء (٨/١١٤).

النقية البعيدة عن التلوث بالشبهات أو الشهوات؛ بحيث تقدم العقيدة الصحيحة والعلم الصافي والمنهج المستقيم خالصاً من أدران المفاسد.

الوصية الثالثة

على الداعية إلى التوحيد أن يكون فقيهاً في دعوته، وهذا الموضوع طويل الذيل؛ لذا سأكتفي فيه بإشارات يسيرة:

● **أولاً**: إن من الأهمية بمكان أن يسعى الداعية إلى الانتقال من بثِّ الوعي العلمي إلى بث الوعي العملي؛ بمعنى: أن لا يكتفي ببث العلم المجرد وتأصيل المسائل تأصيلاً مجرداً؛ بل عليه أن يسعى إلى أن يكون لها صدى في قلوبهم؛ فتثمر محبة الله وإيثار مرضاته، وتعظيماً للسنة والتزاماً بها وتقديماً لها على المذاهب والعقول والأهواء، وأن تصل النفوس إلى التزكية التي هي من أعظم مقاصد الدعوة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا

عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢].

● **ثانياً**: على الداعية إلى التوحيد أن يكون حكيماً في دعوته؛ فيعامل كل صنف من المدعوين بحسبه؛ فثمة الجاهل جهلاً بسيطاً، والجاهل جهلاً مركباً، وثمة السهل، وثمة الجافي، وثمة المتواضع، وثمة المتكبر.

وهكذا الناس متفاوتون في قيامهم بالتوحيد. يقول ابن القيم رحمه الله مبيناً تفاوت شهادة التوحيد في نفوس الناس: (فإن من الناس من تكون شهادته ميتة، ومنهم من تكون نائمة فإذا نبِّهتِ انتبهت، ومنهم من تكون مضطجعة، ومنهم من تكون إلى القيام أقرب، وهي في القلب بمنزلة الروح في البدن، فروحٌ ميتة، وروحٌ مريضة إلى الموت أقرب، وروح إلى الحياة أقرب، وروحٌ صحيحة قائمةٌ بمصالح البدن)[1].

---

(١) الداء والدواء (٣٠٢).

وعليه، فالداعية مطالب أن يدعو كل صنف بالأسلوب المناسب له؛ فيستعمل التصريح في موضعه، والتلميح في موضعه، والشدة في موضعها، واللين في موضعه، والهجر في موضعه، والتأليف في موضعه؛ فهذه الأمور مرتبطة بالمصلحة وجوداً وعدماً.

● **ثالثاً**: تفريعاً على ما سبق أقول: إن على الداعية أن يلحظ جانب الرحمة في دعوته، وهذا ما نتلمسه من هدي النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال في قوم أعرضوا عن دعوة التوحيد أول أمرهم: «**اللَّهم اهد دوساً وأت بهم**»(١).

وكانت وصيته لدعاة التوحيد من أصحابه: «**بشِّرا ولا تُنَفِّرا**»(٢).

بل حتى إذا اقتضت الحكمة تغليظ الخطاب

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٣٧)، ومسلم (٢٥٢٤).
(٢) أخرجه البخاري (٢٨٧٣)، ومسلم (١٧٣٣).

والشدة في الأسلوب فينبغي أن يكون دافع ذلك: الشفقة على المخالفين ورحمتهم والحرص على هدايتهم.

ولا يخفى أن النظر إلى المخالفين للتوحيد ومعاملتهم ينبغي أن تكون من جهتين:

الأولى: أن يعاملوا بما يستحقون من العقوبة والزجر والبغض؛ فإن أوثق عرى الإيمان: الحب في الله والبغض في الله.

الثانية: ما عبر عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله: (إذا نظرت إليهم بعين القدر - والحيرة مستولية عليهم، والشيطان مستحوذ عليهم - رحمتهم ورَفَقت بهم؛ أوتوا ذكاء وما أوتوا زكاءً، وأعطوا فهوماً وما أعطوا علوماً...)[1].

● **رابعاً**: حبذا لو اعتنى الداعية إلى التوحيد في خطابه الدعوي ببعض الوسائل؛ ومنها:

---

(١) الفتوى الحموية الكبرى (٥٣٣).

- اختيار العناوين الجاذبة للمحاضرات أو الرسائل المؤلفة في التوحيد؛ فالمطلوب إيصال العلم النافع للناس، واستعمال الوسائل المتاحة المباحة في ذلك أمر مطلوب.

- عرض التوحيد من خلال الوقوف عند لطائف القرآن.

- استنباط دروس التوحيد من خلال القصص؛ فمن خلال القصص الثابت ـ والنفوس مجبولة على حب القصص ـ يستطيع أن يبلغ طرفاً من دعوته للموافق والمخالف؛ وذلك من خلال قصص السيرة النبوية، أو ما ورد من القصص في السنة، ومن خلال قصص الأنبياء، ومن خلال سير الصحابة والسلف الصالح.

- ومن ذلك أيضاً: العناية بإيصال دروس التوحيد من خلال ضرب الأمثال، وهو مسلك قرآني معلوم.

- ومنها: الدعوة إلى توحيد العبادة من خلال توحيد الربوبية، ومن طريق أسمائه سبحانه وصفاته؛ فمن خلال تذكير الناس بعظمة الله وعظيم سلطانه وبديع صنعه، وما له من صفات الجلال والجمال ـ يُقرر وجوب إفراده بالعبادة.
- ومن مسالكه أيضاً: المزاوجة بين مخاطبة العقل والترغيب والترهيب.

وبالجملة؛ فمن كان التوحيد همّه فسيجد طريقه للدعوة إليه ولو كان يتحدث عن الطهارة أو الأخلاق أو الاقتصاد!

وأعتقد أن من وفق إلى الأسلوب المؤثر في الدعوة إلى التوحيد فقد أوتي خيراً كثيراً.

الوصية الرابعة

يجب أن يعلم الدعاة إلى التوحيد أن من أسباب قوة دعوتهم: اتفاقهم وتعاونهم على البر والتقوى، والضد بالضد؛ ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

إن من أعظم العقبات التي تعترض طريق دعوة التوحيد: تفرُّق الدعاة إليه، مع كونهم يسلكون منهج السلف الصالح جميعاً.

إن تفرق دعاة التوحيد يعني مزيداً من نشاط أعدائهم، وإن انشغالهم بأنفسهم يعني مزيداً من جرأة خصومهم في إظهار باطلهم والترويج له.

فعلى الدعاة الناصحين أن يتقوا الله في الأمة،

وأن يسعوا جهدهم في تأليف القلوب ونبذ العداوات وتهميش حظوظ النفس، وأن يشمروا عن ساعد الجد في لمّ الشمل ورأب الصدع وبث النصح وتقديم حسن الظن، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

ولست بحاجة إلى الإطناب في الاستدلال على أن جمع الكلمة على الكتاب والسنة مطلب شرعي، وأن للنزاع والشحناء عواقب وخيمة، وكيف لا يكون الأمر كذلك ونبينا عليه الصلاة والسلام يقول: «**فإن فساد ذات البين هي الحالقة**»(١).

ويأمر ركب الدعوة إلى التوحيد ـ وهما معاذ وأبو موسى ﷺ ـ: «**تطاوعا ولا تختلفا**»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٠٩)، وأبو داود (٤٩١٩)، وأحمد (٢٧٥٠٨). وقال الترمذي: (هذا حديث صحيح)، وهو كما قال.

(٢) قطعة من حديث مضى تخريجه.

الوصية الخامسة

ليحذر دعاة التوحيد أن يتسلل إلى نفوسهم اليأس أو الشعور بالإحباط حين النظر إلى الواقع المؤلم أو إلى جهود الأعداء، بل الواجب أن يكون ذلك دافعاً إلى مزيد من النشاط والاجتهاد واستشعار المسئولية واليقين بأنهم على الحق، وأن نصر الله قريب؛ فلا تنس أيها الداعية أن الله ولي الذين آمنوا.

قال ابن القيم رحمه الله: (فإن الداعي إلى الله تعالى لا يتم له أمره إلا بيقينه للحق الذي يدعو إليه، وبصيرته به، وصبره على تنفيذ الدعوة إلى الله باحتمال مشاق الدعوة وكف النفس عما يوهن عزمه ويضعف إرادته؛ فمن كان بهذه المثابة كان من الأئمة

الذين يهدون بأمره تعالى)[١].

وإذا كان الله تعالى قد قال لرسوليه موسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] فإن كل من سار على نهج الأنبياء والمرسلين له حظ من معية الله المقتضية نصرته وتأييده. وإذا كان الله معك فلا يحزنك ما فاتك، ولا تبتئس بما تلقاه ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١﴾ [غافر: ٥١].

قال ابن القيم رحمه الله: (فالدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين وأتباعهم، وهم خلفاء الرسل في أممهم، والناس تبع لهم، والله سبحانه قد أمر رسوله ـ ﷺ ـ أن يبلغ ما أنزل إليه، وضمن له حفظه وعصمته من الناس، **وهكذا المبلغون عنه من أمته لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم له**)[٢].

---

(١) إعلام الموقعين (٤/١٣٥).
(٢) جلاء الأفهام (٥٨١).

كما أن على الداعية أن يحذر من حيل النفوس ووساوس الشيطان؛ فيزدري نفسه، ويتوهم أنه أقل من أن يدعو أو ينصح، متذرِّعاً بقلة العلم وضعف التحصيل، وهذا لعمر الله من أعظم تلبيس الشيطان على أهل الخير؛ فمقام الدعوة ليس مقام إفتاء، ولا عذر لأحد في أن يقدم الكثير في سبيل نصرة التوحيد، وليس في العصر الذي نعيشه ـ وقد عرفت طرفاً من حاله ـ مجال لإظهار التواضع البارد؛ فقد حمي الوطيس بين الخير والشر والهدى والضلال، والتحمت صفوف الفريقين؛ فمن الحرمان ـ ورب السماء ـ أن يعتزل طالب العلم وهو يرى محارم الله تنتهك ـ لا سيما ما يمسُّ جناب التوحيد ـ وهو بارد لا يحرك ساكناً.

فالنشاط النشاط يا أهل التوحيد، والثبات الثبات مهما عصفت رياح الفتن، واليقين اليقين بنصر الله، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧].

الوصية السادسة والأخيرة

أيها الموحد: إن الدعوة إلى الله تحتاج إلى رجال صادقين يبذلون النفس والنفيس في سبيل الله، ويسترخصون الغالي لإعلاء كلمة الله؛ فالدعوة إلى الله (جهاد بالقلب وباللسان وقد يكون أفضل من الجهاد باليد)[1].

وليعلم الجادُّ في تجريد المتابعة للنبي ﷺ أن الدعوة إلى الله هي سبيله ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨]. هذه السبيل فأين المشمرون؟

---

(١) أحكام أهل الذمة (١/٧٢٩).

قال ابن القيم رحمه الله: (فمن دعا إلى الله تعالى فهو على سبيل رسوله ﷺ، وهو على بصيرة، وهو من أتباعه، ومن دعا إلى غير ذلك فليس على سبيله، ولا هو على بصيرة، ولا هو من أتباعه)[١].

إن التوحيد - يا أهل التوحيد - نعمة، والدعوة إليه من شكرها؛ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١]، قال القرطبي: (وعنه [أي مجاهد] قال: بالنبوة. أي بلغ ما أرسلت به، والخطاب للنبي ﷺ، والحكم عام له ولغيره)[٢]. والله تعالى يقول: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر: ٨] وأي نعيم أعظم من التوحيد؟

فمن أراد أن يكون من الشاكرين لهذه النعمة فليعطِ الدعوة إليه أصول وقته واهتماماته، وليكن ذا

---

(١) جلاء الأفهام (٥٨١).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٦٩/٢٠).

همة وحماس وحرص على هداية الخلق، وليسترخص ذاته في ذات الله.

قال ابن الجوزي واصفاً الإمام أحمد: (هذا رجل هانت عليه نفسه في الله تعالى فبذلها، كما هانت على بلال نفسه.

وقد روينا عن سعيد بن المسيب أنه كانت نفسه عليه في الله تعالى أهون من نفْس ذُباب.

وإنما تهون أنفسهم عليهم لتلمّحهم العواقب؛ فعيون البصائر ناظرة إلى المآل لا إلى الحال)[1]. وصدق رحمه الله؛ فهكذا الصادقون!

ولتعلم ـ أيها الموفق ـ أن صدق الإيمان يقتضي أن يكون في العبد غضبٌ أن تنتهك محارم الله، وإجلال له وتعظيم، واعتقاد أنه أهل أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر،

(١) مناقب الإمام أحمد (٤٤٦).

وأن يُفتدى من انتهاك محارمه بالنفوس والأموال[١]؛ كما قال بعضهم: (وددت أن جسدي قُرّض بالمقاريض، وأن هذا الخلق أطاعوا الله)[٢].

ومن لطيف ما يُورد في هذا المقام من تعظيم السلف لحرمات الله ـ لا سيما ما يمسُّ جناب التوحيد ـ ما أخرجه أبو نعيم عن خناس بن سحيم قال: (أقبلت مع زياد بن جرير[٣] من الكناسة، فقلت في كلامي: لا والأمانة؛ فجعل زياد يبكي ويبكي، حتى ظننت أني أتيت أمراً عظيماً، فقلت له: أكان يُكره ما قلتُ؟ قال: نعم؛ كان عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهي).

---

(١) انظر جامع العلوم والحكم (٣٢٥).

(٢) هو زهير بن نعيم البابي، وأخرجه عنه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/١٥٠).

(٣) الأسلمي، أحد التابعين، رحمه الله ورضي عنه، وهذا الأثر وما بعده أخرجهما أبو نعيم في حلية الأولياء (٤/١٩٦).

وساق أبو نعيم بإسناده أيضاً عن ربيع بن عتاب قال: (كنت أمشي مع زياد بن جرير، فسمع رجلاً يحلف بالأمانة، قال: فنظرت إليه وهو يبكي، قلت: ما يبكيك؟ فقال: أما سمعت هذا يحلف بالأمانة؟ فلئن تحك أحشائي حتى تدمى أحب إلي من [أن] أحلف بالأمانة).

وما أحسن قول أحدهم: (وارحمتاه لذوي النفوس الكبيرة أولات الإحساس المرهف والشعور المتوقد؛ ماذا يلاقون من الآلام، وماذا يحملون من الأعباء في هذا الكون الصاخب بالآلام، المثقل بالأعباء: الناس يذنبون، وهم يتجرعون مرارة الذنب، والناس يفسدون وهم يتحملون أعباء الإصلاح لما أفسدوا، والناس يسيئون إلى ولي نعمهم وإلى أنفسهم، وهم وحدهم يجدون عذاب تلك الإساءة، ويتذوقون عقباها المريرة... يريدون من هذا الكون كله أن يحمل ما تحمله أنفسهم من الفضائل والهدى والبصائر وإلا نصبوا...

وارحمتاه لذوي النفوس الكبيرة أولات الإحساس المرهف والشعور المتوقد؛ يتعبون أنفسهم ليريحوا غيرهم، ويشقون أبدانهم وأرواحهم ليسعدوا أرواح الناس وأبدان الناس، كأن كبر النفس معناه كبر ألمها ونصبها، وكأن إرهاف شعورها معناه إرهاف ألمها وعذابها، وكأن سموها على النقائص معناه سمو مصائب الناس وهموم الناس إليها، وكأن إبعادها عن المعيب معناه فيها إبعادها عن الراحة والهدوء والسكون).

يا أهل التوحيد.. الحمل ثقيل، والأمانة عظيمة، والجنة غالية، والله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

أسأل الله أن يصلح قلوبنا، وأن يملأها بحبه، وأن يوفقنا لطاعته وتحقيق توحيده، وأن يجعلنا من جنده وأنصار دينه، إن ربنا لسميع الدعاء، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الوصية الأولى	٢٥
الوصية الثانية	٢٧
الوصية الثالثة	٣٠
الوصية الرابعة	٣٦
الوصية الخامسة	٣٨
الوصية السادسة والأخيرة	٤١
الفهرس	٤٧